فى حدود الممكن

لن أغفر لنفسى هذا الخطأ، قلتها وأنا أطالع (كارت تعريف لوظيفته) بالفعل أذكره واضفت له أين أسكن بالتحديد، بعبارات مبتورة أمرتها بإدخاله الصالون، جاء بلا أخطار مسبق، تصنعت الدهشة وأنا أقابله مع رسم الإنكار لما صنع بقلب الشفاه، صدق حقا كل عباراتى الجوفاء، خرجت من لسانى تحت إلحاحه، تعال فى أى وقت ترغبه، نتقابل في. لم ينتظر حتى أبدى اعتراضا أو ما شابه على مسلكه فقد اندفع فى سرعة سيارة سباق: الأمر عاجل، لا أعرف كيف انتهى منها؟ وقد ازعجتنى عبارته الغامضة: عن ماذا تحدث يا أستاذ. "أ"! انتبه لتسرعه، تمادى بلا مقدمات: ألا تعرفنى أنا أيمن عبدالستار سياراتك لدينا فى التوكيل منذ أسبوع. عبرت بإطلالتها كالطيف قبل أن أجيبه محتدا: تقصد منذ أربع عشر يوما، آه. تذكرتك أنت (الميكانيكال).؟ رد بعجرفه مفتعلة: لا أنا مهندس واحمل درجة ماجستير ـ عجم حروف عربيته ـ ماسترز انجكشن سيستم! ثم شمخ بأنفه نحو السقف، بدأت أفقد صبرى وحلمى معا: تشرفنا، كيف حال سيارتنا لديكم؟ ألن تسمحوا لى باستعادتها؟ أقسم ألا أغضبها مهما حدث الأولاد وزوجتى يفتقدونها بشدة. ابتسم فى ود: سيارتك فى أمان، أنا أهتم بها

شخصيا وكل قطع غيارها الأصلية سأضعها لك وبنصف ثمنها، انس السيارة تماما. فكرت جبهتى استعدادا: إذا ما المشكلة؟. أقصد زيارتك الميمونة وكلامك عن ماذا بالضبط؟ ارتسم البؤس فجأة فى عينه: إنها روايتى يا أستاذ، لا أعرف كيف انهيها؟ تذكرت بغتة انه قال لى شيئا ما عن قصة يكتبها وانا اتفقد سيارتى المريضة بين عنابر الإصلاح وقتها منحته كتابا من مؤلفاتى ودراساتى النقدية عل هوايته تلك تفيدنى بإنجازه لعمله ويسارع به. أسرع يقول مقاطعا: لقد سألت عنك وقرأت لك تعجبنى افكارك وهذا ما دعانى لطلب النصيحة، بطلى فى مأزق وأنا لا أعرف كيف انتهى من الرواية، إذ كلما اخترت طريقة للختام لاحت لى اخري. وتالية، أو اظنها بلا ضفاف واقعية ويشوبها الافتعال، بل وحتى حمقاء وعلى هذه الحالة لشهور تطاول الجبال من المعاناة. فى حذر حتى لا تسوء الاحوال بيننا: اظنك تعرف النهايات المفتوحة، بل هى الأقرب لمن على شاكلة تجربتك فى القصة، أقصد أصحاب الاتجاه العملى وتدركهم تجربة الكتابة بلا مقدمات ومبررات ابداعية عموما انه ليس عيبا بالضرورة المهم ماذا كتبت، الم تعرض روايتك على أحد، قارئ، صاحب ثقافة حياتية إيجابيه، شاعر مثل (السند باذ أو الجخ أو الشحط) أنا أعلم انهم يصلحون سياراتهم لديكم؟ هز رأسه مؤمنا على ما أقول ثم جادا: دخلت سياراتهم فعلا الصيانة وخرجت سريعا، لم يتح لى الوقت لعرض الأمر عليهم، لكننى عرضت الرواية على سعادة السفير رضوان ولواء سابق بالجيش.

اصبح الأمر مثيرا أكثر مما توقعت، تهيئت لسماع الأراء: وماذا كان رد سعادة السفير؟ مع حركات من كلتا يديه: لديه قلق بالغ من تحولى لكاتب كما إنه شجب بشدة مأزق البطل الذى يرى إنه بلا حل وفى الإجمال تروقه القصة بوضعها الحالى ويرى ضرورة تثبيته! علقت: رأى دبلوماسى له وجاهته، وما هو رأى اللواء؟ سرح: إنه لا يرى هذه قصة أو رواية ويقول إنها خواطر، مقالة، كلام فارغ، بلا أزرق، أى شيء إلا أن تسميها قصة. عموما هذا كلامه دائما لا يغيرة تجاه كل شيء تقريبا إنه صاحب مبدأ لا يحيد عنه.

أكدت: أعرف هذا الرأى وصاحبه إنه كما تقول فلا داعى للإحباط، اى عمل يعرض فى نادى القصة يتعرض لمثل ذلك وأكثر، اعطنى روايتك لأقرأها وسوف نرى بعد ذلك ما يمكننا عمله؟ تهلل وجهه بالبشر وطلب السماح بدقيقتين ليأتى بها من سيارته رباعية الدفع، على أثرها كان لدى صندوقا أنيقا من البلاستيك المستعمل لحفظ قطع غيار كبيرة باهظة الثمن، ما الذى أوقعت نفسي، فيه هذه مجهودات سنين وليس شهورا طوالا كما يدعي. قلت له أن يمهلنى وقتا ولم أنس أن أشدد عليه إننى أحتاج سيارتى بشدة غير انه شدد على انها تحتاج لاسبوعين على الأقل لتتعافى من استعمالى المشين واردف ذلك بعدد لا بأس به من المصطلحات الهندسية والميكانيكية العويصة، كاد ينصرف حينها استوقفته للحظات ـ فقد كان يتملكنى الفضول بشأن مدى ثقافته واطلاعه؟! ـ أجاب بكلمته بعد أن نظر إلى بخبث. "هزار أفسانه"

تعرف الأساطير منذ بدايتها غير المعقولة إن شاء أمضاها أو حورها أوغذاها بملء الأنهار وبنات الأفكار لكنه يصنع لى أمثال الأحلام فى وهدات من لحظات حاد وتسلل خفية خلف الستار، راح يحدق من فجورة فى مثل ضوء الشمعة، تسللت من تلك الكوه تفاصيل كثيرة، أدركها بعين الشغف والعجب والإبهار، زاد الدم الحار فى وجنتيه وأوشك على فضح مكنون الأسرار، تطلع إلى أن يطل بكامل رأسه فى تلك الفجوة، بغتة حجبت عنه الرؤية وغطته ستر ظلام كان الليل قد غادر شرفة المكتب أو كاد، حين ادركت انى قد امضيت ساعات أتحسس فى استغراق هادئ خيوطا تفضى جميعها إلى مجهول، احسبها تنقلنى رغم الجهد لبر أمان ماذا على أن أفعل، الناقد قد تعجبه بدايات الحكاية لكنه لا يتدخل فى عمق تلافيف الكاتب، قد يرديه الحل.

أسبوع وتعقبنى فى ملتقى حزين عمر بالنقابة ووجدته يهمس فى أذنى من الخلف: كيف حال روايتى بين يديك وأشرت أن يتبعنى لخارج الندوة ومباشرة رددت: حالها حال سيارتنا التى مازالت فى عنبر الكسور لديكم، قادنى بعيدا عن باب القاعة إلى البهو وهو يؤكد: لا تقلق أنا مهندس متمرس، ستكون جديدة تماما. قررت أن أصارحه: أخشى إننى لا أستطيع أن أقول ذلك على مخطوط روايتك فلديك عيوب فنية خطيرة.

بهت واصفر وجهه ولم يردعنى ذلك عن التشريح : لديك سقطة فى الحبكة الدرامية الرئيسية وثلاث شخصيات لا مبرر لوجودها ولا تخدم أحداث القصة، كما إنك تناسيت الدوافع تماما مع البطلة فأصبحت عرجاء بلا جر أمامى أو خلفي، وهناك التزامن الحركى غير المنضبط، اضافة لعدد كبير من الاستعارات والتشبيهات الشعبية المبتذلة والتى لا تناسب بيئة القصة ولا ابطالها! ارتمى بظهير فى حركة قنوط على الفوتيه: وبطلى الرئيسي، اقصد انك لم تذكر عنه شيئا؟ استوقفت ثرثرته بحركة تبطيط: بطلك جيد ووضعه فى الرواية معقول، وإن كنت لا أعلم لماذا لم يصمد معك للنهاية ولا كيف لم يتغلب على مأزقه الحالى ويأتى تصرفة متصفا مع إمكاناته، أغلب ظنى بسبب الثغرة التى بعرض متر وربع فى الحبكة؟ بتوسل: والحل يا دكتور عقل أنت لا تعلم كم هو مهم جدا إتمام الرواية، إنها ابنى البكر وقد انتظرت سنين.

وكان الموضوع خرج من يدي: تستطيع ان تأخذها لكتاب اخرين. ربما قالوا لك أسبابا أخرى أو نصحوك بإعادة الصيغة مثلا لتلافى العيوب الفنية والتغطية على العجز الدرامي، أو صنع حبكات صغيرة لتستخدم الشخصيات التى بلا مبرر لكن هذا ليس اسلوبي، خاصة ان الفكرة كلها تعجبني؟ بغير تردد أسرع: أنا لا أريد أن أذهب وراء خيارات جديدة تماما، فالسيارة إذا عبثت بها أكثر من يد ورأى تلفت واستحال إصلاحها هذا ما تعلمته ينبغى دائما السير وراء متخصص وتطبيق خطوات منضبطة.

ابتسمت منتصرا فقد كنت أعلم إنه يمكن التفاهم معه: اتفقنا إذًا اسرع بتسليمى سيارتى وأنا أعد لك وريقات خطوات وإرشادات إنجاز الرواية كما ينبغى لكاتب محترف أن يفعلها. أسرع بمد يده بالمصافحة: اتفقنا، السيارة ستكون تحت عمارتك غدا فى العاشرة صباحا.